ذخائر العرب

٥٧

ثمار القلوب

في المضاف والمنسوب

لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري

٣٥٠ - ٤٢٩ هـ

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نقل ابن خَلّكان[1] عن ابن بسّام أن الثعالبىّ «كان فى وقته راعى تَلعَات العلم، وجامعَ أشْتات النّثْر والنظم؛ رأْسَ المؤلّفين فى زمانه، وإمامَ المصنفين بحكم أقْرانه، سار ذكرُه سيرَ المثَل، وضُرِبت إليْه آباطُ الإبل، وطَلعَتْ دواوينُه فى المشارق والمغارب، طلوعَ النَّجْم فى الغياهب؛ تواليفُه أشهرُ مواضع، وأبهى مطالعَ، وأكْثر من أن يستوفِيهَا حدّ أووَصْف، أو يوفىَ حقوقها نَثْر أو رَصْف».

وعلى الرّغم من أن الثعالبى كان جديرًا بهذا الوصف، وعلى الرغم أيضا من أنه عاش أكثر من ثمانين عاما، قضى معظمها فى مدارسة الآداب والعلوم، ونظم الشعر الرائق، وإنشاء النثر الرائع؛ فإنه لم يظفر من المؤرخين وواضعى كتب التراجم بشىء يُؤْبَهُ له؛ وكلّ ماذكروه عنه: أن اسمه أبومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورىّ الثعالبى؛ وأن مولده كان بنيسابورسنة خمسين وثلثمائة؛ ووفاته كانت بها أيضا سنة تسع وعشرين – أو ثلاثين – وأربعمائة؛ وأن نسبته إلى الثعالب ترجع إلى خياطة جلودها وعملها؛ أوقيل له ذلك؛ لأنه كان فَرّاء[1].

---

(١) ابن خلكان: ١: ٢٩١.

وزاد ابن قاضى شهبة أنه كان يعمل مُعَلِّمَ صبيان فى مَكْتَب[1]؛ وحتى تلميذُه وربيبُه علىّ بن الحسن البَاخرزى صاحب دُمية القصر لم يَزِدْ على أن قال فى حقّه: «جاحظ نَيْسابور، وزُبدة الأحقاب والدّهور، لم تر العيون مثلَه، ولاأنكرت الأعيانُ فضله، وكيف يُنْكَرُ وهو المُزْن يُحْمد بكلّ لسان، أوْ يُسْتَر وهو الشّمس لاتخفى بكلّ مَكان! وكنت وأنا بعدُ فرخ أزغَب، فى الاستضاءة بنوره أرغب، وكان هو ووالدى بنيسابور لَصِيقَىْ دَار، وقريبَىْ جِوار، فكم جملة كتب كانت تدور بينهما فى الإخوانيات، وقصائد يتقارضان بها فى المجاوبات، ومازال بى رءوفًا وعلىّ حانيًا، حتى ظننته أبًا ثانيا؛ رحمة الله عليه كلَّ صباح تخفُق رَايَاتُ أنوارِه، ومساءٍ تتلاطمُ أمواج قَارِه»[2].

وقريب من ذلك ماقاله الحصرى صاحب زهر الآداب: «وأبومنصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا، وهو فريد دهره، وقَريع عَصْرِه، ونسيج وَحْدِه، وله مصنَّفات فى العلْم والأدَب، تشهد له بأعلى الرُّتب؛ وقد فرّقت ما اخترتُه منها فى هذا الكتاب»[3].

أمّا تاريخ نشأته وحياته، ورَوافد معارفه وآدابه، وماتقلب عليه فى أطوار عمره من أحْداث، وماعَسى أن يكون قد شغله من وظائف أو أعمال؛ وذِكْرُ شُيوخه وتلاميذه وصلاته بالملوك والرؤساء والأمراء، ومعاصريه من الكتاب والشعراء والعلماء، فإن هذا ومثله؛ مما لم يذكره مؤرخ أو باحث.

ويؤخذ مما كتب وصنّف، أنه كان بَدْر الأدباء الزاهر، وكوكبهم

---

(١) طبقات ابن قاضى شهبة ٣٨٨ (مخطوطة الظاهرية).

(٢) دمية القصر ١٨٣.

(٣) زهر الآداب ١ : ١٥٧.

اللامع، وَعَى مازَخر به عصرُه من فنون رآداب، وماتُرجم إلى العربية من ثقافات، وأنه أحاط بجميع ماصُنِّف من كتب، وحفظ ماتناقلته الرواة من حر الشعر ومصطفى الكلام؛ فى مختلف الأصقاع؛ من الأندلس غربا إلى خراسان والتركستان شرقا؛ وأن كل ما ازدهر - فى ظلال الدولة البويهية فى العراق وفارس، والسّامانية فى التركستان وماوراء النهر، والحمدانية بحلب، والفاطمية بمصر، والمروانية بالأندلس - من صنوف الآداب، قد أحاط به ووعاه؛ وأن ماتفتحت به قرائح الشعراء وترسل به الكتاب والأدباء؛ فى بغداد ونيسابور ودمشق وحلب القاهرة والقيروان وقرطبة وإشبيلية قد وقع له، وأودعه بطون كتبه وأسفاره.

ويؤخذ من كتبه أيضا، أنه كان كريم المنزلة عند الملوك والسلاطين والأمراء، تفيأ ظلالهم؛ وعاش فى كَنَفهم؛ وألف الكتب برسمهم، وأهداها إلى خزائنهم، ونال عندهم سنى الجوائز ووافر الأعطيات، على اختلاف الممالك وتنوع الإمارات؛ فألف لطائف المعارف للصاحب، والتمثيل والمحاضرة وأهداه لقابوس، واللطائف والظرائف، والكناية والتعريض للمأمون صاحب خوارزم.

أما الأمير أبوالفضل الميكالى، فقد كان مشغوفا بحبه، محنى الأضالع على مودته، فأهدى لخزانته أنفس ماألف، أهدى إليه فقه اللغة، وسحر البلاغة، وثمار القلوب. وأورد من أخباره وشعره ورسائله فى كتبه مالم يورده لأحد من الرؤساء؛ وكان الميكالى بذلك جديرًا، قال فى حقه فى بعض فصوله: «من أراد أن يسمع سر النظم، وسِحْرَ الشعر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذَوْب الظَّرْف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ماأسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالى فكره، من ملح تمتزج بالنفوس لنفاستها، وتشرب بالقلوب لسلاستها. وايم الله مامرّ يوم أسعفنى فيه

الزّمان بمواجهةِ وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بَحْره؛ فشاهدتُ ثِمار المجد والسؤدُد تنتثر من شمائِله، ورأيتُ فَضائل الدهر عيالا على فَضائله، وقرأت نُسْخَة الفضل والكرم من ألحاظه، وانتهبت فضائل الفوائد من ألفاظه - إلا تذكّرت ما أنشدنيه، أدام الله تأييده لابن الرومىّ:

لولا عَجائبُ صُنْع الله ما نَبَتَتْ تِلْكَ الفَضَائِلُ فى لحمٍ وَلَا عَصَبِ

وقول الطّائى:

فلوْ صَوَّرْتَ نَفْسَك لم تَزِدْها على ما فيك مِنْ كَرَم الطِّبَاعِ

وقول كشاجم:

ما كان أحوج ذا الكمالِ إلى عَيْبٍ يُوَقِّيهِ مِنَ العَيْنِ

ورَبَّعْتُ بقول أبى الطيّب:

فإن تفق الأنامَ وأنْتَ منهم فإنَّ المسك بعضُ دم الغزالِ

وكان الميكالىّ أبدًا يأخذ بضبُعه، ويريش جناحه، ويضَع بين يديه خزائن كتبه، ويرعى فيه حرمة الأدب الأصيل، والطبع المصفى الجميل، والنفس الكريمة، والشمائل العِذاب.

* * *

وكان الثعالبىُّ شاعرًا صافىَ الديباجة، لطيف التخيّل، خفيف الروح، شائق اللفظ، رشيق المعنى، بعيدًا عن التكلّف والتعقيد؛ كما كان كاتبًا متخيّر اللفظ، سهل الأسلوب، مليح التصرّف، رائق الفكر، صادق الوجدان. وأحسن ما قاله فى مدح الأمير الميكالى والتحدّث بما جمّله الله به من أدب وظرف؛ وأخلاق سريّة كريمة؛ يقول فى بعض مدائحه فيه:

لَـكَ فى المفـاخِـرِ معجـزاتٌ جَمّــةٌ   أبـدًا لغيرك فى الـورى لم تُجمَعِ[1]
بَحـرانِ : بَحْرٌ فى البـلاغة شـابَـهُ   شِعْرُ الوليد وحُسْنُ لفظ الأصمعِى
وتــرسُّـلُ الصّـــابى يـزين عُلوّه   خط ابن مقلة ذى المحـلِّ الأرْفـعِ
كـالنُّور أو كـالسِّحْر أو كـالبدْر أوْ   كـالوَشْىِ فى بُـرْدٍ عليـهِ مُـوَشـعِ
شكـرًا فكمْ مِنْ فقرةٍ لَـكَ كـالغِنَى   وافَى الكـريمَ بُعَيْـدَ فقـرٍ مُـدْقِــعِ
وإذا تَفَتَّقَ نـوْر شِعْـرك نــاضـرًا   فـالحسْنُ بين مُـرَصَّـعٍ ومُصَـرَّعِ
أرْجَلْتَ فُـرْسَـان الكـلامِ ورضْتَ أفـ   ـراس البـديع وأنت أمجـدُ مُبْدعِ
وَنَقَشْتَ فى فَصِّ الـزّمـانِ بـدائعًـا   تـزرِى بآثـار الـربيـعِ المـمرِعِ

ومن نثره فيه «وأمّا فنون الأدب فَهُوَ ابنُ بَجْدتها، وأخو جُمْلَتِها، وأبو عُذْرتِها، ومالك أزمَّتها، وكأنما يُوحَى إليه فى الاسْتِئثار بمحاسنها، والتفرّد ببدائعها، ولله هو إذَا غرس الدُّرَّ فى أرض القَراطيس، وطرّز بالظّلام رداء النهار، وألقت بحارُ خواطرِه جواهرَ البلاغة على أنامله؛ فهناك الحِسُّ برُمّته. والحُسْن بكليّته»[2].

وجميع شعره ونثره على هذا النحو، سائر بين العذوبة والرّقة، وجمال اللفظ ودقة المعانى.

* * *

وكما بارك الله للثعالبىّ فى عمره، فقد بارك له أيضًا فى تصـانيفه وكتبه، فألف ما يربى عن الثمانين كتابًا، تدور كلها حول اللغة والأدب والتـاريخ، ودون فيهـا معارف عصـره؛ ورسم صورة واضحـة المعالم لأعلامه وكتّابِه وشعـرائه، ونقـل إليها أروع مـا نَضَحت به قـرائح

(١) ابن خلكان ١ : ٢٩١.
(٢) زهر الآداب ١ : ١٣٣.

الشعراء، وأقلام الكتاب والمنشئين والبلغاء، مثل يتيمة الدهر فى شعراء العصر، وفقه اللغة وسر العربية، وسحر البلاغة، والتعريض والكناية، والمبهج، والتمثيل والمحاضرة، وخاصّ الخاصّ.. وغيرها. وفى تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، والأعلام للزِّركلى، ومقدمة سحر البلاغة لأحمد عبيد، ومقدمة لطائف المعارف للإبيارى والصيرفىّ، ومقدمة التمثيل والمحاضرة لعبد الفتاح الحلو؛ فى كل ذلك بيان عن كلّ كتبه: مخطوطها ومطبوعها.

وكتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، من الكتب التى اتّسمت بجمال التأليف، وتنسيق الأبواب، مع شرف الغاية، وكرم المقصد، «بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يُتَمثّل بها، ويكثر فى النّظم والنَّثْر وعلى ألسنة الخاصة والعامة استعمالها؛ كقولهم: «غُراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى. وكقولهم: كنز النّطِف، وقوس حاجب، وقرطامارِيَة، وصحيفة المتلمس. وكقولهم: تفاح الشام، وأترجّ العراق، وسكّر الأهواز، وورْدَ جُور.. وهكذا». وخرّجها من واحد وستين بابا ينطقُ كلّ منها بذكر ما يشتمل عليه أولا، ويُفصح عن الاستشهاد وسِياقة الموادّ آخرا، وما فيها إلا ما يتعلق من المثل بسبب، ويُوفِى من اللّغة والشعر على طَرَف، ويضرب فى التشبيهات والاستعارات بسَهْم، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسم، ويُجيل من خصائص البلدان والأماكن قِدْحًا، ويجرى فى أعاجيب الأحاديث شوطًا».

وقد افتنّ الثعالبىّ فى تصنيفه، وجرى على سجيّته فى كتابة أبوابه وفصوله، وأودعه من الطُّرف والنوادر والملح والأفاكيه والأقاصيص ومضاحك الشعر ما جعله مَراد النفس، وجلاء القلب، ومُتعة الخاطر.

وقد شارك الثعالبىّ فى تأليف هذا النوع بعض العلماء والمصنفين، منهم ابن الأثير فى كتاب المرصّع - وقد قصَره على الأذْواد والآباء والبنين والبنات - والمحبّى، فى كتاب ما يُعوّل عليه فيما يضاف وينسب إليه، وقد سار فيه سيرًا معجميًّا، وأخلاه من الأخبار والقصص، واختصر فيه الشواهد؛ كما وقعت منه بعض فصول لأبى هلال العسكرىّ فى كتاب جمهرة الأمثال، والميدانى فى كتاب مجمع الأمثال، وابن سيده فى كتاب المخصص، إلّا أن كتاب الثعالبىّ أحسنُها فصولا وأبوابًا، وأسهلها شريعة وأعذبها موردًا، وأجمعها لصنوف الآداب وروائع الأخبار، ومنتخل الأشعار، وسوائر الأمثال.

وقد قمت بتحقيق هذا الكتاب على النسخ الآتية:

١ - نسخة مصورة عن نسخة مخطوطة بدار الكتب محفوظة برقم ٤٠٩٩ - أدب، يبدو أنها كتبت فى القرن الحادى عشر بقلم معتاد، ناقصة من الآخر وهى مُجَدْولة بالمداد الأحمر، وأولها محلى بالمداد الذهبىّ، وبها فهرست لعشرين بابا من أبواب الكتاب يقع فى سبع ورقات. وينتهى الموجود فى أثناء الكلام على «زرقاء اليمامة» من الباب العشرين وتقع فى ٢١٦ ورقة، تشتمل كل صفحة فيها على واحد وعشرين سطرًا، وفى كل سطر اثنتا عشرة كلمة تقريبًا، وقد رمزت إليها بالحرف (أ).

٢ - نسخة مصورة عن نسخة أخرى مخطوطة، محفوظة بدار الكتب برقم ٢٢٥ - أدب، كتبت بقلم معتاد بخط يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل، فرغ من كتابتها يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ١١١٩ هـ. ناقصة من أولها، ويبدأ الموجود منها فى أثناء الكلام على «جزاء سِنمّار»، من الباب الثامن. وتقع فى ١٥٠ ورقة؛ كل

صفحة تشتمل على ٢٧ سطرًا وكل سطر يشتمل على اثنتى عشرة كلمة تقريبًا. وقد رمزت إليه بالحرف (ب).

٣ - نسخة طبعت بمطبعة الظاهر سنة ١٣٢٦ هـ نشرها محمد أبو شادى وقد رمزت إليها بالحرف (ط).

وجميع هذه النسخ يشيع فيها التحريف والتصحيف والسقط والخطأ. وقد بذلت أوسع الجهد وأصدق النية فى التحقيق والتصحيح، معتمدًا على الله، ثم على هذه النسخ، وعلى كتب الأدب واللغة والتاريخ ودواوين الشعر، وعلى الأخص كتب الثعالبى نفسه؛ كما صنعت له الفهارس المتنوعة.

ومن الله أستمد العون والسداد، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مصر الجديدة فى { ٩ ذو القعدة ١٣٨٤.
١١ مارس ١٩٦٥ م.

محمد أبو الفضل إبراهيم